

الفصل الثاني: بدايات الهوية الاتجاه إلى عالم الفكر

الطفولة والمدرسة والجامعة

كان المفروض أن يصبح عبد الوهاب تاجرًا كبيرًا كأبيه وجده، لكن المناخ الفكري السائد في الطبقة المتوسطة، وتردده على المكتبات العامة، ثم عناية الأساتذة في المدرسة والجامعة عدلت المسار، وفتحت آفاقه على عالم الفكر الرحب.

الثمرة الرابعة عشرة...

البذور الثقافية

بدأت ملامح انفصال عبد الوهاب المسيري عن البيئة التجارية لعائلته الممتدة واتجاهه إلى عالم الفكر والثقافة وهو في الثالثة أو الرابعة من عمره؛ فكان يقلد طبيب العائلة في هيئته ومشيته، وأعلن أنه قرر أن يصبح

«دكتوراً». وفيما بعد اتجه إلى الاستماع لفيروز بدلاً من أم كلثوم مخالفاً التقاليد البرجوازية والعائلية وقتها.

ويضيف د. المسيرى: من خلال علاقتى بابن ناظر مدرسة الزراعة (أسرة نووية غربية عن المجتمع الدمنهورى)، لاحظت أنه هو وأسرته أقل ثراءً من الناحية الاقتصادية من أسرتى، إلا أن أسلوب حياتهم أجمل، وكنت أراهم يقرأون الكتب. وحينما أذهب إلى منزلهم كنت ألاحظ أنهم يتحدثون فى أشياء كثيرة متنوعة، وكانت هناك لوحات على الحائط وتحف فى دولا ب الفضيات. وبدأت أدرك أن ما يحدّد حياة الإنسان ليس بالضرورة العنصر الاقتصادي.

* مكتبة البلدية

وذات يوم اكتشفت مكتبة البلدية من خلال ابن أحد الموظفين (فأبناء التجار مثلى كانوا لا يذهبون للمكتبات).

وأذكر جيداً أن أول ما اطلعت عليه كان كتب الأستاذ كامل كيلانى الملونة للأطفال، فغمرنى فرح لم أشعر بمثله من قبل. وقد توسم فى أمين المكتبة شيئاً من الخير، فكان يختار لى الكتب بنفسه، فنصحنى بقراءة كتب التاريخ، بما فيها كتاب عبد الرحمن الرافعى عن تاريخ مصر الحديث، وبعض الكتب سهلة المنال عن الفلسفة والفنون، وبعض الروايات.

لذلك كنت أحرص وأنا أدرس فى الجامعة أن ألقى أول محاضرة فى المكتبة، لأخبر الطالبات بطريقة الاستعارة وتقسيم المكتبة، وأنواع الكتب: موسوعات ومعاجم وكتب إرشادية ومراجع وكتب فن. وكان كثير من الطالبات يعتبرن أن هذه المحاضرة كانت تمثل لحظة فارقة فى حياتهن، تماماً مثل زيارتى لمكتبة دمنهور.

* المدرسة من النضج الفكرى والتعليم إلى اللا تعليم

كان يمكن لهذه التجارب التى خضتها كطفل أو صبي يافع أن تتحول إلى مجرد تجارب مرحلية، وألا تساعدنى على ولوج عالم الفكر، لو لم ينعم الله علىّ بمدرسين وأساتذة جامعيين، ساعدونى ودفعونى ودعّموا ثقتى بنفسى وساعدونى على التفكير النقدى.

قضيت مرحلة الدراسة الثانوية فى مدرسة دمنهور الثانوية. وكان بها عدد كبير من المدرسين الشبان الذين استمروا فى دراستهم العليا فى الإسكندرية، بالرغم من أنهم لم يُعَيّنوا فى الجامعة.

كان من أهم أساتذتى الأستاذ روفائيل مدرس التاريخ الذى توسّم فىّ خيراً وأعلن للطلبة أننى عبقرى وأنهم يجب ألا يقارنوا أنفسهم بى، وبدأ يطلب منى أن أكتب «أبحاثاً» خارج المقرر، وكان يقرؤها على الطلبة، الأمر الذى كان يسبب لى حرجاً شديداً وسعادة بالغة فى الوقت نفسه. لم أكن أفهم سر حماسه لى، فحتى ذلك الوقت (سنة ثالثة ثانوى) كان إحساسى أن ذكائى عادى وربما أقل من العادى، ويشهد بهذا أدائى المدرسى. ومع هذا، قرر الأستاذ روفائيل أن لى شيئاً ما، فوجدتنى مضطراً ألا أحيب ظنه وأن أقدح زناد فكرى كى آتى بأشياء «عبقريّة» كما هو متوقع منى. وتحسن أدائى الدراسى بعد ذلك بسرعة أذهلتنى أنا شخصياً.

أما الأستاذ إميل جورج (الدكتور الآن) فكان هو بداية حياتى الفكرية الحقيقية. كان أستاذاً بمعنى الكلمة، درسنا على يديه الفلسفة فى التوجيهية (عام 1954/1955) وحبّب إلينا مادته. كان يعرض لنا أعمق المسائل الفلسفية بطريقة بسيطة، وكان يث الشك فى نفوسنا ولكنه لم يكن يقذف بنا فى هوة العدمية، ولولاه لضيّعت من عمرى سنوات وسنوات، أقرأ ما أقرأ وأراكم المعلومات دون إدراك لأبعادها ومعناها.

كانت تجربتي مع التعليم في مصر سعيدة للغاية (باستثناء حصص الحساب اللعينة). وإلى جانب الدرس والتحصيل على يد مدرسين يحبون موادهم ويوصلونها بطريقة محبة للطلبة، كانت هناك حصص الألعاب والأشغال والرسم والموسيقى والفلاحة والخط. وبعد ذلك كله كان لدينا وقت فراغ نمرح فيه ونلعب.

والآن أرتجف حين أفكر فيما يحدث لصغارنا في المدارس ولشبابنا في الجامعات، الذين يُكبَّلون بالكتب المعلوماتية الثقيلة (المطبوعة بشكل رديء)، والذين يقضون كل وقتهم في دراسة مواد ينسونها بعد مرور شهر، ولا تترك لهم أى مجال للعب أو التنفس، والذين يقابلون في الفصل مدرسين يحولون الحصة المدرسية إلى دعاية لحشد التلاميذ للدروس الخصوصية. كان التعليم في مصر مجانيًا وممتعًا، وبالتدريج أصبح غير مجانيّ بسبب الدروس الخصوصية، ثم أصبح لا علاقة له بالتعليم، إذ أصبح التعليم الآن هو اكتساب مقدرة اجتياز الامتحانات.

الثمرة الخامسة عشرة...

الإسكندرية وجامعتها

تخرجت في مدرسة دمنهور الثانوية عام 1955، وذهبت إلى الإسكندرية أحمل إدراكي المركب وثقتي بنفسى، وفجأة وجدت نفسى في قلب مدينة مصرية اسمًا، غربية فعلاً. كنت أقطن في الإبراهيمية التي كانت تعيش فيها جالية يونانية كبيرة، حتى بائع الخضر كان ينادى على بضاعته باللغة اليونانية، وفي بعض المطاعم لم يكن بُد من الحديث باليونانية أو الفرنسية. وإلى جانب ذلك كانت هناك نوادٍ للسينما تعرض علينا أحدث الأفلام الأوروبية، وحفلات موسيقية. جو كوزموبوليتانى (عالمى غير منتمى لأى تشكيل حضارى) لا جذور له، يمكن أن يثرى الإنسان ويمكن أن يتلعه.

ذهبت إلى قسم اللغة الإنجليزية وآدابها، بكلية الآداب، حيث كان الجميع يتحدثون الإنجليزية، وكان كثير من الطلبة من أصل يوناني أو إيطالي، وحتى المصريين الخُص كانوا أجنب، إذ كانوا لا يعرفون العربية ولا يعرفون إلا أقل القليل عن مصر. حتى جدول المحاضرات كان مكتوبًا باللغة الإنجليزية، ومقسّمًا إلى مربعات أفقية ورأسية لم أفهم منها شيئًا، فأصابني الدوار.

* التحدى

قررت التحرك بسرعة لأكتشف الآليات الجديدة المطلوبة لتحقيق البقاء، وأهمها إجادة اللغة الإنجليزية، فحبست نفسى فى غرفة لمدة شهر كامل لا أسمع إلا الإذاعات الناطقة بالإنجليزية ولا أقرأ سوى الجرائد والمجلات الإنجليزية. وعُدت بعد الفصل الدراسى الأول وقد تملك ناصية اللغة بشكل أدهش أساتذتى. وفى الصيف، أحضرت أرتالًا من الكتب العربية التى تتناول تاريخ الغرب والفكر الغربى والفن الغربى والفلسفة الغربية، كما أحضرت ترجمات لعدد من المسرحيات والروايات، حتى يمكننى تملك ناصية الخطاب الحضارى الغربى، وحتى تتعمق معرفتى بالتقاليد الأدبية الغربية مثلما تملك ناصية اللغة. وفى الفرقة الثانية التحقت بمدرسة إنجليزية لبضعة شهور حتى تصبح الإنجليزية لغة حية بالنسبة لى. وبذلك، أصبحت قادرًا على التحرك فى تلك الأوساط شبه المصرية والتعامل معها بكفاءة غير عادية رغم عدم احترامى لها!

الثمرة السادسة عشرة...

التعليم الجامعى الحقيقى والأستاذ الجامعى القدوة

كان قسم اللغة الإنجليزية فى الإسكندرية تجربة فريدة، فالتدريس فيه كان يأخذ شكل محاضرات حقيقية، لا دروس إملاء. كان الأساتذة يدخلون

ويُلقون محاضراتهم ويفسحون المجال للطلبة كي يطرحوا أسئلتهم. وكانوا يقبلون الرأى الآخر بصدر رحب، بل ويرحبون به.

وكانوا يطلبون منا أن نكتب أبحاثاً حقيقية ونقرأ المراجع ونستشهد بها في مقالاتنا. وكانت الأسئلة في الامتحانات تتطلب إجابة يُعمل فيها الإنسان عقله وخياله لا أن يجتر ما قاله الأساتذة من قبل. وكانت إجاباتنا تأخذ شكل مقالات طويلة يعرض فيها الطالب وجهة نظره. لم يكن أساتذتنا في الإسكندرية يعرفون التهاون في الدرجات، فالعملية التعليمية بالنسبة لهم كانت شيئاً جاداً ومهمّاً. كان عدد الطلبة صغيراً يتناقص تدريجياً كل عام حتى يصل إلى عشرة أو أقل في عام التخرج، بذلك كنا نتعلم المعرفة والسلوك القويم. ولهذا السبب حينما ذهبنا إلى جامعة كولومبيا والتحقنا بقسم الدراسات العليا، وجدت أن مستوى أعلى من مستوى كثير من الطلبة هناك.

كان الدكتور محمود المنزلاوى يلقي علينا محاضراته في تاريخ الحضارة في العالم، فيحدثنا بطلاقة وتلقائية عن كل شيء، ابتداءً من ملاحم هوميروس وانتهاءً بدكتور زيفاجو لباسترناك.

وكان الدكتور محمد مصطفى بدوى يقرأ معنا النصوص الأدبية ويفرض أى تعميمات لا تستند إلى استشهد من النص، كان ذلك يضايقني أحياناً كثيرة، ولكنى تعلمت (أنا الذى أجيد التحليق فى عالم الفكر المجرد) أن أبحث دائماً عن أرض راسخة، مهما حُلِّقْتُ. وكان كل من الدكتور المنزلاوى وبدوى يستضيفني في منزله ويعطيني الكتب ويعلمني فن القراءة والحياة.

*** أستاذتى... الدكتورة نور شريف**

أما الدكتورة نور شريف، رئيسة القسم، فهي إنسانة على قدر كبير من الثقافة والحكمة. كانت محاضراتها في الأدب والشعر متعة حقيقية، إذ كانت

محاضرات حوارية بالفعل، تناقش معنا النصوص الأدبية وتفسرها تفسيراً واسعاً يتضمن العناصر الجمالية والتاريخية والأخلاقية.

كانت الدكتورة نور على قدر كبير من الالتزام برسالتها كمعلمة: أن تسهم في بناء هذا البلد عن طريق تعليم أبنائه. لم تكن تخضع أبداً للضغط الخارجية لتحافظ على رسالتها، فعندما أرسلت رئاسة الجمهورية تسأل عن سبب الرسوب المتكرر لأحد الطلبة الواصلين الوصوليين، كان رد د. نور أن نجاح ورسوب مثل هذا الطالب ليس شأنًا من شئون رئاسة الجمهورية، كان هذا عام 1962، حينما كان الجميع يرتعدون خوفاً من المخابرات. ومرة أراد العميد أن يعرف نتيجة إحدى الطالبات قبل إعلانها، فاستشاطت غضباً وأعطت النتيجة للفراش ليعلمها، وأخبرت العميد في الوقت نفسه أن فلانة التي يسأل عنها قد رسبت في ثلاث مواد.

لاحظت ابنتى نور (التي سميتها باسم أستاذتى) أن أصدقائى من الإسكندرية لهم طابع خاص، فأخبرتها أن هذه هى بصمات د. نور وقسمها. وسألتنى مرة د. نور شريف عن أهم مصادرى الفكرية، فكان ردى ضاحكاً هو: نور شريف. ثم أضفت بشكل جاد: إننى على مستوى من المستويات أعنى ما أقول. ولا يمكن أن أتخيل نفسى دون هذه المرحلة من حياتى التى تعلمنا فيها كيف نفكر وننقد ونكتب.

الثمرة السابعة عشرة...

العالمية فى الفكر تنطلق من المحلية والتراث

ومن أهم أساتذتى فى الإسكندرية الشاعر الإنجليزى البروفسير جون هيث ستبس John Heath Stubbs. أذكر أن فى امتحان أدب القرن السابع عشر كان هناك سؤال عن مصادر شخصية الشيطان والموت والخطيئة فى

ملحمة الفردوس المفقود Lost Paradise لجون ميلتون John Milton، للممت أطراف شجاعتي وقارنت بين لندن التي عاش فيها جون ميلتون ودمنهو التي عشت فيها، فبيّنت أن الشاعر الإنجليزي حين كتب ملحمة كان عصر النهضة قد بدأ بالفعل منذ قرن ونصف القرن، لكنني أشرت إلى أن الرأي السائد (آنذاك) الخاص بأن العصور الوسطى المظلمة اختفت في اليوم التالي تقريباً لعصر النهضة هو اختزال مغل للأمر، ولذا مع أن ميلتون كان يعيش حقاً في أواخر عصر النهضة فمن المحتمل أن يكون قد احتك بشكل يومي بكثير من الأشكال الحضارية من العصر الوسيط (تلك الأشكال التي استمرت لعدة قرون بعد عصر النهضة)، وأن من ضمن هذه الأشكال مسرحيات الأخلاق التي تحتوى على شخصيات مثل الشيطان والموت والخطيئة. قارنت تلك المسرحيات بمواكب الحرفيين التي كانت تخرج احتفالاً برؤية هلال رمضان والتي شاهدها في دمنهور حتى الخمسينيات والتي تعود ولا شك إلى عصور سابقة.

فوجئت بأن البروفيسر ستبس قد أعطاني النهاية العظمى، إذ إن ما قلته كان جديداً تماماً. وازدادت جرأتى بعد تلك الواقعة، وتعلمت كيف أستند إلى تجربتي الخاصة ولا أنكرها وإلى تراثي ولا أنتكر له، بل أوظفهما في عملية الإدراك والتفسير، كما ازددت إيماناً بمقدرة العقل والخيال على التوليد.

* بحوثنا تنكر لهويتنا العربية والإسلامية

منذ عدة سنوات، كتبت تقريراً لكلية الآداب بجامعة الملك سعود بينت فيه أن من أكبر آفات البحث العلمى في العالم العربى انفصاله عن المعجم الحضارى الإسلامى وافترض أن ثمة معرفة عالمية علينا أن نُحصِّلها متناسين تراثنا وهويتنا، وأشرت إلى أنه لن يمكننا أن نبدع طالما استنمنا لهذه المقولة، فهى تعنى المحاولة الدائمة «للحاق بالغرب» (فالعالمى فى

منظورنا هو الغربي). وضربت مثلاً بما يدور في أقسام اللغات الأوروبية في العالم العربي، وكيف أننا ندرسها من وجهة نظر أصحابها ونستبعد هويتنا الحضارية ومعرفتنا العربية والإسلامية.

وحلاً لهذه المشكلة، اقترحت تشجيع الباحثين على الانطلاق من منظور عربي إسلامي يساعد الباحث على اختيار موضوعات جديدة يترجم إبداعه من خلالها، كما يساعده على أن ينظر إلى الغرب باعتباره تشكيلاً ضمن تشكيلات حضارية أخرى وليس التشكيل الحضارى المطلق، لذا فليس على المرء قبوله (كما يفعل دعاة التغريب) أو رفضه (كما يفعل بعض المتشددین)، وإنما يمكننا أن ندرسه كتجربة حضارية تتسم بما تتسم به الحضارات من سلبيات وإيجابيات.

الثمرة الثامنة عشرة...

تأخر النضج الفكري في الشرق

يمكن القول أن شباب الأجيال المعاصرة في الغرب يصلون إلى سن الإنتاج الفكري وهم بعد في العشرينيات، فهم لا يضيعون وقتهم في المدارس الابتدائية والثانوية، بل يزدادون فيها علماً ويكتسبون خبرة. كذلك فإن مستوى التعليم الجامعي مرتفع هناك، يسمح بإعداد الطالب للحياة الفكرية المثمرة في هذه المرحلة. وبعد إتمام المرحلة الجامعية ينتقل المتفوق منهم بسهولة إلى الدراسات العليا، دون تعقيدات لا نهاية لها ودون هموم مالية (فالمنح الدراسية تتكفل بهذا في كثير من الأحيان). كل هذا يقف على طرف النقيض من الوضع عندنا، إذ علينا أن نكافح ضد نظام تعليمي مُعَوَّق (ازداد سوءاً وشراسة في الآونة الأخيرة).

إن الدارس في الغرب لا يحتاج لإعادة صياغة مفاهيمه وأفكاره، فهي

نابعة من التشكيل الحضارى والاجتماعى الغربى (طبيعة مجتمعهم)، ومن ثم يمكن تطبيقها على واقعهم. وفى المقابل على الباحث العربى أن يعيد صياغة مفاهيمه، حتى لا يستمر فى تبنى مفاهيم لا علاقة لها بواقعه الحضارى والاجتماعى، وبالتالى غير قادرة على دراسة هذا الواقع والإسهام فيه.

إن تأخر تكوين المثقف فى العالم العربى يؤثر فى التنمية، يتساقط الكثيرون أثناء العملية التربوية، ومن يخرج منها سليماً تكون سنوات عطائه محدودة للغاية.

داء التأمل

الثمرة التاسعة عشرة...

التأمل: موهبة فطرية

* حياتنا هى الوقت

إن أهم العناصر التى ساعدت على اتجاهاى لعالم الفكر ما أسماه «داء التأمل» الذى أصبت به فى بدايات الصبا، إذ أدركت أن «حياتنا هى الوقت». وبناءً عليه كنت مثلاً أطلب من إحدى الخدم أن تُحضرن لى حذائى (توفيراً للوقت، وبالتالى «إنقاذاً لحياتى»)، وعندما اكتشفتُ والدتى هذا الأمر أعطتني علة ساخنة؛ فأخلاقيات الريف لا تعرف تقسيم الناس بشكل حاد إلى أسياد وخدم، وعبثاً حاولت أن أشرح لأمى أن المسألة ليست «عنظرة» أو «منظرة»، وإنما هى إحساس عميق بالوقت!.

وقد أكسبنى هذا الإحساس الحفاظ على كل دقيقة وثانية؛ أحمل فى جيبى دائماً أوراقاً لأكتب فيها أو كتباً لأقرأها. وإن وجدت نفسى واقفاً

أصنع الشاي وعلى انتظار الماء حتى يغلى، أؤدى بعض التمرينات الرياضية حتى لا أضيع هذه الدقائق، وكثيراً ما أضع لنفسى جداول عمل مستحيلة التحقيق.

الثمرة العشرون...

التأمل... الطريق إلى الحقيقة

بعد هذا الإدراك العميق لمفهوم الوقت، بدأت أتأمل كل شىء يحدث لى، وأمارس الحزن والفرح من خلال تأملاتى. أدركت أن الحقيقة «كامنة فى الظواهر التى تمر بنا»، يشعر بها الإنسان من خلال خفقات قلبه ونبضات عروقه، لكى يصل المرء إلى جوهرها وكنيتها فلا يمكنه ذلك إلا من خلال الوجدان والقلب، لذلك لا يفوز بها إلا الذين يملكون القدرة على التأمل.

وقد لازمى داء التأمل طوال حياتى، ولم يولد الإيمان داخلى إلا من خلال رحلة عقلية طويلة، لذا فأباني «إيمان تأملى عقلى»، لم تشارك فيه عناصر روحية، فهو إيمان يستند إلى إحساس بعجز المقولات المادية عن تفسير ظاهرة الإنسان وإلى ضرورة اللجوء إلى مقولات فلسفية أكثر تركيبية.

هذا لا يعنى أنى تحررت تماماً من التفكير العقلى المجرد، فهذا مُكوّن أساسى فى شخصيتى. ذات مرة قابلت إحدى طالباتى الحوامل وسألتها متى سترزق بالمولود، فقالت: «بعد شهرين». وبعد شهرين، قابلتها فى القسم فسألتها هل رُزقت ولداً أم بنتاً؟، ففوجئت بضحكات الطالبات العالية، فالطالبة الحامل لم تكن قد ولدت بعد! لكننى قمت بعملية حسابية عقلية دون أن أرصد الواقع المباشر. ولعل هذه القدرة على الانفصال المؤقت عن الواقع هى التى مكنتنى من الصمود لكتابة الموسوعة فيما يزيد على ربع قرن.

الثمرة الحادية والعشرون...

الغرق فى بحر التأمل.

وللتأمل جانبه المظلم، فهو يفصلنى عن الواقع ويجعلنى أعيش فى عالمى الفكرى والأسطورى الخاص، ويظهر ذلك فى تلك الواقعة: كنت فى الولايات المتحدة عام 1975 أكتب كتابًا باللغة الإنجليزية عن الصهيونية ومستغرفًا تمامًا فيه، ثم اتصلت بى زوجتى وأخبرتني أن بعض اللصوص هاجموا واختطفوا حقيبتها وفروا، وأنها ستأخر حتى تنتهى الشرطة من التحقيق. وبعد ساعة وصلت إلى المنزل ولم أتحرك من مكانى وواصلت الكتابة، فانفجرت باكية فأدركت جرمى، واعتذرت لها عما فعلت.

ولا أدرى هل هذا التأمل المستمر هو المسئول عن أننى كنت فى طفولتى أفقد النقود التى تعطيها لى والدتى لشراء أى شىء. وما زلت أفقد نظارتى فى منزلى وأكوّن فرقًا للبحث عنها.

الثمرة الثانية والعشرون...

التأمل والترميز والطقوس

منذ طفولتى وصباى كانت بعض الأشياء تكتسب قيمة رمزية فى عقلى غير قيمتها الوظيفية. كنت أتصور أن المكرونة هى طعام أهل الجنة، ولذا كنت أكل منها لا بمقدار حاجتى الغذائية المادية، وإنما بمقدار حاجتى النفسية أو العاطفية أو حتى الروحية إن صح القول.

أما الأرز، فكان مرتبطًا فى ذهنى بالطمأنينة وبالعودة إلى دمنهور، ولذا بعد عودتى من رحلاتى المدرسية كنت أطلب من أمى أن تطبخ لى بعض الأرز الذى لم يعد طعامًا أملاً به معدتى، وإنما مسألة ذات دلالة رمزية.

وكثيراً ما تكتسب موضوعات الكتب التى أكتبها بُعداً رمزياً، يجعل منها جزءاً من معركة الإنسان مع كل ما يتهدده. على سبيل المثال، تحولت الموسوعة إلى معركة الإنسان ضد الظلم. وأتصور أن هذا الميل نحو الترميز ساعدنى كثيراً على الانفصال عن بيئى المباشرة، إذ خلقت لى الرموز عالمى الخاص.

ومن نتائج التأمل كذلك، تبنى الإنسان طقوساً خاصة يلجأ إليها فى أوقات معينة، كما حدث عند وفاة والدى ووالدتى، كما سأذكر فيما بعد.

ومن أهم الطقوس فى حياتى طقس «ساعة الصفاء»، وهو المقدرة على أن يعيش الإنسان لحظات خارج الزمان، ومن ثم يمكنه أن يستعيد تكامله وإنسانيته (بعد أن يكون قد فقد بعضاً منها فى معترك الحياة وتفصيلها التى لا تنتهى)، بشرط أن يظل الإنسان واعياً تماماً بأن هذه لحظات مؤقتة وحسب ومن ثم فهى ليست هروباً من الواقع.

وقد تعلمت أنا وزوجتى أن نمارس لحظات الصفاء هذه، مهما كانت الحياة قاسية علينا. ساعتها نطلب من أولادنا أن يتعدوا عنا بعض الوقت، ونجلس وحدنا نحتسى القهوة وأدخن سيجاراً، فتتجدد العلاقة المباشرة بيننا ولا تضيق منا فى الزحام والتفاصيل.

القارىء الكريم...

ألا ترى معى أن أرقى طقوس الصفاء وأكثرها فاعلية أن يقف الإنسان بين يدى الله ﷻ مُصَلِّياً أو قارئاً للقرآن.

الثمرة الثالثة والعشرون...

تأملات حول الحب والزواج

إذا كان الحب الرومانسى الحالم يوجد خارج الزمان (خارج المحسوس والمحسوب)، فكيف يمكن لمن يحب بهذه الطريقة اللازمية أن يتزوج ثم

يترك من يجب ويذهب إلى عمله؟ وكيف ينشغل بالأولاد ومشاكل الحياة؟ كثيرًا ما تلح على هذه الأسئلة.

ألاحظ أن أبناء هذا الجيل، نظرًا لأنهم يتبنون عن غير وعى هذا الحب اللازمى (فهذا ما تتحدث عنه الأغاني والأفلام، وما تروّج له أجهزة الإعلام)، يصبحون غير قادرين على التعايش داخل مؤسسة الزواج، فكل فرد متوجه بشكل حاد نحو السعادة الفردية ونحو اللذة، مما يجعل التعايش مع الآخر داخل إطار واحد (الأسرة بمسئولياتها) مسألة مستحيلة، أو شبه مستحيلة.

* السعادة كالعمل الفنى... تحتاج إلى الإبداع

من خلال تأملاتى لتجاربى وتجارب الآخرين أصبح عندى رؤية ومفهوم للزواج. أرى أن السعادة لا تهبط هكذا من السماء، وإنما هى مثل العمل الفنى، لا بد أن يكد المرء ويتعب فى صياغته وصنعه. والزواج، مثل العمل الفنى أيضًا، ومثل أى شىء إنسانى مركب، يحتوى على إمكانيات سلبية وإيجابية، ولا يمكن فصل بعضها عن بعض. وكثيرًا ما كنت أخبر طالباتى بأن الحب الحقيقى هو أن يقبل الواحد الآخر ويعرف أن محاسنه مرتبطة تمام الارتباط بعيوبه. وأرى أن من الضرورى أن يشترك الزوجان فى نقط الانطلاق والمثاليات وسلم الأولويات الأساسية، فالتعارض على هذا المستوى يؤلّد توترات لا يمكن لمؤسسة الزواج تحملها.

ومن الطريف أننى كنت أتصور أننى تزوجت من د. هدى لأنها مختلفة فى كثير من النواحي عن أمى، ولكنى اكتشفت - بعد قدر من التأمل - أنها تشبهها فى كثير من النواحي.

كما طوّرت مفهوم «إعادة الزواج من نفس الزوجة»، إذ تتغير الظروف والأوضاع وتتغير الشخصية والتوقعات، فيُعاد النظر فى العلاقة ويُعاد

تشكيلها بما يتفق مع الرؤية الجديدة. وأزعم أنني تزوجت من زوجتي ثلاث مرات، المرة الأولى التقليدية، والثانية بعد حصولي على الدكتوراه، والثالثة بعد حصولها هي على الدكتوراه. ولعل هذا المفهوم يحل بعض المشكلات التي يقابلها الناس في زيجاتهم، إذ يتصور كل طرف أن الآخر نمط محدد لا يتغير، ومن ثم فالتوقعات والأحزان والأفراح لا تتغير، وهو تصور غير إنساني، فثمة قدر من الثبات في حياة الإنسان ومن ثم في شخصيته، ولكن ثمة قدرًا من التغير أيضًا، ولا بد أن يأخذ الإنسان هذا في الحسبان.

الوعى بالموت والمرض

الثمرة الرابعة والعشرون...

الوعى بالموت

كان للموت مهابته ووقاره في دمهonor التي نشأت فيها. فالموت، في المجتمعات التقليدية، شأنه شأن الحياة، أمر مهم وخطير لا يتحمل الدعاة أو الهزل، وفي نفس الوقت كان الناس يقبلونه كأمر طبيعي من أمور الحياة. حينما تمر جنازة كان الجميع يتوقفون عن البيع والشراء ويتسابقون لحمل النعش والقيام بواجب العزاء، وإن مررنا على القبور كنا نقول: «السلام عليكم دار قوم مؤمنين، أنتم السابقون ونحن إن شاء الله بكم لاحقون». وكانت زيارة المقابر جزءًا من حياة الناس اليومية، يزورون في المناسبات والأعياد من مات من أهلهم وأقاربهم، تمامًا مثلما نزور نحن الأحياء.

كانت جدتي نازلي - رحمها الله - تُعدُّ نفسها في السنوات الأخيرة من حياتها لمنزل العودة، فبدأت في توزيع ما تبقى لها من متعلقات الدنيا. ومرة لمحت في دولاها الخشبي المتهالك قماش كفنها الأبيض والأخضر. أما أمي فكانت آخر رغباتها ألا تُدفن إلا في مدافن أهلها.

ويمكن مقابلة ذلك بموقف الأمريكيين من الموت ورفضهم الشديد له وخوفهم العميق منه، ويعتبر هذا علامة على عدم النضج، بل ورفضًا عميقًا للحياة الإنسانية.

ويبدو أن الموت في مجتمعنا قد تم استيعابه أخيرًا في نفس النمط التنافسي الذي تم استيعاب الأفراح فيه. ففي صفحة الوفيات توجد تعازى الأثرياء في مربعات كبيرة، أما تعازى الناس العاديين فتوجد في الأعمدة التقليدية، كما يتم تصوير الجنازات بالفيديو بعناية فائقة !.

وكعادتي، فقد اتخذت تجاه الموت موقفًا فلسفيًا يدفعني للتأمل، مع الاحتفاظ بمسافة بيني وبين الأحداث. حينما توفي والدي، كنت في الولايات المتحدة، فذهبت إلى نيويورك وحضرت مسرحية برخت «الاستثناء والقاعدة» كطقس جنازى لوالدي، ولكنى لم أبكه إلا بعد زيارتي لقبره في دمنهور. وعندما ذهبنا لتشييع جنازة والدي، ظلت صامتًا (مما أثار دهشة من حولى)، ولكنى انفجرت باكياً عند قبرها ثم لزمى الصمت وغصت في التأمل، ثم أحييت المناسبة بأن شربت المشروبات التقليدية التى كانت تحبها (التيليو والحلبة والأنسون ومنقوع ورق الجوافة). ويبدو أن مقدرتى على التجريد كانت وراء الملاحظة الغبية التى قدمتها لصديق ذهب أعزبه في وفاة والدته، إذ أخبرته أن أمهاتنا قد بلغن السن التى يتوقع فيها الإنسان موتهن. فنظر إليَّ بدهشة، فاعتذرت له وقلت: «البقية فى حياتك».

وقد أحسست بالموت إحساسًا جماليًا حين رأيت لوحة جميلة رسمها فنان صينى لشجرتين من نبات البامبو (البوص) تعلو كلاً منهما زهرة ملونة جميلة. وقال الفنان فى شرحه للوحة: إن هذا النوع من البامبو يظل ينمو لمدة تسعة وثلاثين عامًا ثم يزهر زهرته فى العام الأربعين ويموت بعدها. فسُحرت بهذه الفكرة وغرقت فى التأمل فيها، وقررت أن أسافر إلى الصين لمشاهدة حقول البامبو هذه حينما تزهر.

الثمرة الخامسة والعشرون...

إدراك المرض: ليس من سمع كمن رأى، وليس من رأى كمن ذاق

يوم أن انتهيت من الموسوعة، حدث ما زلزل كياني، إذ مات زوج ابنتي. وقد لاحظت في ذلك اليوم أنني بدأت أفقد المقدرة على النطق أحياناً، ثم بدأت أشعر بدوار كلما فكرت أو مارست أى مشاعر إنسانية حادة، وقد سقطت مرتين أو ثلاثاً على الأرض. ويبدو أن مرضي كان في معظمه نفسياً، نتيجة للخبر الذي وصل إلى وأنا مُنْهَك القوى تماماً بعد الانتهاء من الموسوعة.

تمرد جهازى العصبى علىّ وأخذ يتصرف بإرادته مستقلاً عني بعد أن وضعته داخل ثلاجة مدة ربع قرن، إذ قرر أن يستجيب وبحدة لأى شيء دون تدخل واع مني. فكنت حين أود عبور شارع ما يخاف جهازى العصبى، رغم معرفتي الواعية أن العبور لن يسبب لي ضرراً، فكانت قدمي لا تتحركان، وكنت أضحك من توقفي. ومرة قَبَلْنِي طفل صغير، فتأثر جهازى العصبى كثيراً وأصبت بدوار شديد كدت أسقط على أثره. ومرة أخرى رأيت خادمة صغيرة تحمل أثقالاً، فحزنت من أجلها، وأصبت بما يشبه الشلل، وهكذا.

نصحتني أحد أصدقائي بالرضا بحُسابانه مدخلاً للشفاء. وبالفعل، قبلت حالتي وبدأت رحلة الشفاء منذ تلك اللحظة، فخلدت إلى الراحة التامة لأول مرة في حياتي تقريباً، وقضيت إجازة شهرين أمام البحر، امتنعت خلالها قدر طاقتي عن التفكير حتى استرددت جزءاً كبيراً من عافيتي، وأشير لهذه الفترة من حياتي بالزلزال أو الكابوس، وذقت طعم المرض والموت لا كمقولات مجردة وإنما كتجربة عشتها بنفسى.

* علم اليقين، عين اليقين، حق اليقين

يُطلق السادة الصوفية مصطلح «علم اليقين» على الأمر إذا أحطت به معرفة (كأن تقرأ عن المرض)، أما إذا شاهدت الأمر فقد صار «عين اليقين» (كأن ترى مريضاً)، فإذا ذقته وعاششته صار «حق اليقين». ويبدو أن الله سبحانه وتعالى بعد أن ترسّخ في الإحساس بالموت، أراد أن يُرسخ في أيضاً الإحساس بالمرض العضوى.

بعد أن شُفيت تماماً من الدوار الذى كان يصيبني، شعرت بألم خفيف في ظهري ثم تدهورت الأمور بسرعة خلال يومين أصبحت بعدهما عاجزاً تماماً عن الحركة. وقد تبين فيما بعد وجود ورم نتيجة مرض يُسمّى (ميلوما أحادية) Solitary Myeloma، وهو شكل من أشكال السرطان الذى يصيب خلايا البلازما Plasma Cells في نخاع العظام، وهو سرطان يأكل العظام والأنسجة المحيطة، وقد قام الورم بتهديش الفقرتين الصدريتين الرابعة والخامسة في عمودى الفقرى فانهارتا منذ مدة طويلة دون أن أشعر وبدأتنا تشكّلان مرة أخرى، وبقي الورم هناك سنوات طويلة ولم يهشم غيرهما (كرم الله ولطفه)، ثم بدأ يضغط على الحبل الشوكى إلى أن توقف نصفى السفلى تماماً.

وأُجريت لى عملية جراحية في الفقرة الخامسة (تسمّى لامينكتومي Lamectomy)، يتم فيها استئصال أجزاء من الفقرة لتخفيف الضغط عن الحبل الشوكى.

بدأت أقرأ عن الميلوما وعن السرطان بشكل عام، فوجدت أن المنهج الذى يتبناه الطب الآن هو التعايش مع السرطان إن لم يمكن القضاء عليه. كما فهِمت أنه من المستحسن تأجيل تعاطى الأدوية القوية أو إجراء عملية

زراع النخاع autologous bone marrow transplant. وفي هذه العملية يقومون بأخذ الخلايا الأم أو الخلايا الجذعية stem cells من نخاع عظام المريض نفسه ثم ينظفونها من الخلايا السرطانية، وبعد ذلك يقومون بإعطاء المريض علاجًا كيميائيًا قويًا يقتل كل ما تبقى من خلايا نخاعه (مما يضعف جهازه المناعي تمامًا)، ثم يقومون بحقن المريض بخلاياه الجذعية، ويتبعون ذلك بإجراء التحاليل ليرصدوا ما إذا كانت الخلايا قد زُرعت أم لا. وبرغم البساطة الظاهرية للعملية فهي مكلفة للغاية.

وحيث إن التدهور في حالتى الصحية بدأ يوم أن انتهت من الموسوعة، فقد انتشرت شائعة طريفة في القاهرة مفادها أن الموساد هى التى تسببت فى إصابتي بالمرض.

الثمرة السادسة والعشرون...

الطب التعاقدى فى الولايات المتحدة: عقدة جوبيتر ود. فرانكشتاين

عندما اشتد على المرض ذهبت إلى الولايات المتحدة لإجراء عملية زرع النخاع، وبدأ علاجى على يد دكتور أليكسنيان Alexenian، وهو من أشهر المتخصصين فى الميولوما فى العالم، وحين قابلته لأول مرة كان لطيفاً للغاية، وسألنى عن الشاعر الإنجليزى المفضل لدى، ثم أخبرنى أنه يمكن إجراء عملية لى لأن عمرى دون الخامسة والستين وعندى من المال ما يغطى التكاليف (أخبرهم المكتب الصحى التابع للأمير عبد العزيز بن فهد إنه سيتكفل بدفع التكاليف). ويمكن القول إن هذه المقابلة نصفها تراحمى والنصف الآخر تعاقدى فما قاله عن تغطية التكاليف لم يكن له أى مبرر، فهو أمر كان معروفاً لدى ولديه. وتم إجراء العملية.

وحين ذهبت لإجراء الفحص السنوى فى العام التالى، وجدت د. أليكسنيان تعاقدياً بشكل رهيب، ينطبق عليه ما يسمى بالـ Jupiter complex أى عقدة

جوبيتر. وجوبيتر هو الاسم اليونانى للإله زيوس، كبير الآلهة. فالطبيب المصاب بهذه العقدة يتصور أنه إله. كنت جالسًا على الكرسي أنا وزوجتى، وحين دخل د. ألكسينيان قمت احترامًا له، لعلمه وسنه، ولكن بدلًا من أن يصافحنى جلس على مكتبه وسألنى لِمَ وقفت؟ فأجبته عن سؤاله، فلم يعلق وقال: إنه تمرين رياضى لا بأس به، ومفيد للعضلات، أى أنه حول تحيى التراحمة إلى شىء يخصنى وحدى ويعود على بالفائدة العضلية، أى المادية. ثم أخبرنى أننى من خلال عملية نقل النخاع وصلت إلى ما يسمى «الكمون الجزئى»، الأمر الذى يعطينى 4 سنوات من العمر، فابتسمت وقلت لزوجتى ضاحكًا هذا يعنى أننى يجب أن أنتهى من مشروعاتى الفكرية فى ثلاث سنوات ونتنزه سويًا فى السنة الرابعة والأخيرة. ففوجئت بالدكتور ألكسينيان يقول: «أنا لم أقل إنك ستعيش مدة أربع سنوات فقد تموت بعد ستة شهور» فسألته: «هل هذا له علاقة بالميلوما؟»، قال: «لا، لكن يمكن أن تصاب بالأنفلونزا أو أى مرض آخر» فضحكت وقلت له: «عندنا فى القاهرة يمكن أن تقوم عربية ميكروباس أو نص نقل بهذه المهمة فى أقل من 24 ساعة» (أى حاولت أن أخبره بطريقة علمانية أن الأعمال بيد الله).

وقد نبهنى أحد أصدقائى المتخصصين إلى أن د. ألكسينيان يبالغ فى الأمور، إذ أنهم فى بعض المراكز الطبية يفضلون سمعة المركز على صحة المريض، لذلك يقومون بتغطية أنفسهم خوفًا من التقاضى، حتى إن بعض الأطباء يتركون مهنة الطب تمامًا، لتزايد التأمين المطلوب منهم دفعه، بقدر لا يتناسب البتة مع أرباحهم، كما أخذ بعض الأطباء يرفضون علاج أى شخص يعمل فى مجال المحاماة أو أى مريضة متزوجة من محام.

كنت أسمى دكتور ألكسينيان، د. فرانكشتاين (إنسان مُخلَق شرس قام بقتل صانعه)، بسبب موقفه التعاقدى المحايد الذى حولنى إلى موضوع ومادة إستعمالية. ولكن - والحق يقال - إنه غير موقفه تمامًا فى المرة التى تليها،

فكان إنسانيًا تراحميًا إلى أقصى درجة، فقد قضى معى ساعة كاملة، وذكر لى خطة العلاج وفلسفتها، كما طمأننى إلى أنه يَجِدُ جديد كل عام وربما يظهر فى القريب دواء جديد أكثر فاعلية. ثم تحدث معى عن الشَّعر مرة أخرى وعن أحوال العالم، فساقط قناع د. فرانكشتاين وتم تقويض مركب جوبيتر وفاض نهر التراحم الإنسانى ليمحو انطباع التعاقد غير الإنسانى.

الثمرة السابعة والعشرون...

التأمل والمرض: الطب البديل ومعجزات الشفاء

لم أكتف بالطب التقليدى بل لجأت إلى أنواع من الطب البديل؛ كالعلاج بالأعشاب والإبر الصينية، ولا أدري هل استقرت حالتى بسبب الطب التقليدى أم الطب البديل أم بمزيج منهما. وما شجعتنى على الاستعانة بالطب البديل أن أستاذًا للشعر الإنجليزى (متخصص فى الشعر الرومانسى مثلًا تمامًا) فى جامعة أكسفورد يدعى Michael Gearin Tosh أصيب بمرض الميلوما وأخبره الأطباء أن أمامه ستة شهور، وأنه لو لجأ للعلاج الكيميائى فسيموت فورًا، فكذب نبأ وفاته، وبدأ رحلة علاج مع أنواع مختلفة من الطب البديل. وبعد مرور عشرة أعوام من نبوءة وفاته كتب كتابًا بعنوان «برهان حى: تمرد طبي A Medical Mutiny: Living Evidence» يسجل فيه تجربته مع الطب العادى والطب البديل!. ومن أطرف ما جاء فى كتابه ما يسمى «التخيل الصينى»، وهو أن يتخيل الإنسان نفسه مع أحد أصدقائه وقد نزلًا سويًا فى شرايينه ليحارب الخلايا السرطانية ويبدأ فى ضربها حتى تقع ميتة، فكنت أقوم بهذه التمارين. وعلى أى حال كان الأطباء يخبروننى أن 80% من العلاج يتوقف على حالتى النفسية وعلى الإرادة. وقد نَوَّه الأمير تشارلز، ولى عهد بريطانيا، فى إحدى أحاديثه باستخدام الطب البديل، فهاجت وماجت المؤسسة الطبية التقليدية ضده!.

ومن أطرف الوقائع الطبية في حياتي ما حدث لي في الجامع الأموي في دمشق. كنت قد قمت بأداء فريضة الحج أنا وزوجتي وقررت أن نذهب إلى سوريا لنزورها لأول مرة في حياتنا، فاعترضت زوجتي بأننا بعد الحج سنكون مرهقين، لكنني أصررت على موقفي. وحين وصلنا إلى هناك أصبت بالحمى المالطية، وارتفعت درجة حرارتي بشكل ملحوظ، وبدأت زوجتي في تعنيفي بسبب عنادي الشديد. وفي الجامع الأموي قررت أن أضع حدًا لعملية التعنيف هذه، فالتفت إلى السماء ودعوت الله بصوت عال أن يشفيني في أسرع وقت، فاستجاب الله دعوتي على الفور، إذ بدأت أتصيب عرقًا بشكل ملحوظ، وانخفضت درجة حرارتي في اللحظة نفسها. وفي طريق العودة مررنا على مدينة جرش حيث يقام مهرجان فني كل عام، وتذكرت أن ماجدة الرومي كانت تغني تلك الليلة، فاقترحت عليهم أن نخرج على المسرح لنسمعها، فرفض الجميع بسبب الإرهاق الذي كان قد ألم بهم، بينما أنا المريض كنت في غاية اللياقة البدنية، وسبحان مغير الأحوال. إن ما حدث لا يمكن فهمه ولا يمكن تكراره (وهذه هي بعض صفات المعجزة التي يُطلق عليها اصطلاح «صدقة»).

الثمرة الثامنة والعشرون...

المرض والنضج الفكري والنفسي

تعلمت أنا الذي لم أمرض مرة واحدة تقريبًا أثناء كتابة الموسوعة، كما أعددت عشرات المشروعات البحثية فور الانتهاء منها، بل وكنت أتحدث عن السيطرة على الجسد، تعلمت محدودية الجسد الإنساني ومحدودية المقدرة الإنسانية. بدأت أتعاطف مع المعوقين أكثر من ذي قبل (وإن كنت اكتشفت أن الإنسان المُعَوَّق يعوض نقاط النقص فيه من خلال كفاءات أخرى بطورها). وتعلمت أنه لا يوجد مرض وإنما يوجد مريض! أي أنه لا توجد

قوانين عامة للمرض وإنما يوجد أشخاص يصابون بمرض ما ويستجيب كل واحد منهم له بطريقة مختلفة.

وأثناء مرضى غمرنى أصدقائى وتلاميذى بالمحبة؛ فعادنى عشرات منهم ووصل إلى نهر جميل من الأزهار، كان يفيض من غرفتى على بقية المستشفى. وحينما كنت أسير فى شوارع لندن، كان كل الناس يساعدونى، وحينما أركب إحدى وسائل المواصلات العامة يتكون لى مقاعدهم، ففى الشدائد يظهر المعدن الإنسانى الأصيل. وذكرنى ذلك بما كان يحدث للناس فى الولايات المتحدة بعد العواصف الثلجية، كان الجميع يتكاتفون، وإن غرزت سيارة فى الثلج تقف السيارات الأخرى لمساعدتها، وإن غطى الثلج باب منزل يأتى الجيران لإزاحة الثلج، فيسقط التعاقد تمامًا ويظهر جوهر الإنسان التراجيحى. وهكذا تعلمت، أنا الذى لم أعد أحدًا فى مرضه إلا نادرًا، أهمية أن يقف المرء إلى جوار الآخرين فى لحظات الشدائد.

ورغم فجائية اكتشاف المرض إلا أننى تقبلت هذا الخبر بكثير من الهدوء والرضا، بل أننى حين كنت وزوجتى فى شيكاغو لاستشارة الأطباء نحدد مواعيد الأطباء بما يتفق مع جدولنا «السياحى». فقمنا بزيارة المتاحف والحدائق والمسارح، وقضينا واحدًا من أجمل شهور حياتنا الزوجية.

مع المادية والماركسية

الثمرة التاسعة والعشرون...

* بذور الشك

حينما كنت فى السنة النهائية فى مدرسة دمنهور الثانوية، وأنا بعد فى السادسة عشرة، بدأت بعض الأسئلة الأساسية تهاجنى وبإلحاح شديد.

وكان من أهمها أسئلة خاصة بأصل الشر في العالم والحكمة من وجوده، وعن أصل الكون. وكان هذا العام أول عام أدرس فيه مادة الفلسفة، وقد خلبت هذه المادة لى تمامًا، وساعدتني على تنويع أسئلتي وتعميقها وصياغتها بطريقة متبلورة.

وأذكر أنني قرأت قصيدة قصيرة أعتقد أنها لكامل الشناوى، تقول:

يا رب فيم خلقتنا وتركتنا	نَهَبَ الظلام فلا ضياء ولا سنا
وندبُ فوق الأرض لا ندرى بها	وندبُ فوق الأرض لا تدرى بنا
أنا من أنا، أنا من أكون؟ وسيلة	أم غاية، أنا لست أعرف من أنا
وهم يساور ملحدًا فيروعه	ويخافه من كان مثلى مؤمنا

والقصيدة ليست من عيون الشعر العربى، ومع هذا تركت في أثرًا عميقًا. لقد جعلت الإيمان الدينى مسألة جبن وإحجام عن التساؤل، وهذا ما لا يقبله من كان فى سنى وعقلى.

لم يكن أحد فى أسرتى قادرًا على أن يأتى بإجابة شافية لهذه التساؤلات، فمعظمهم كان يصلى ويصوم بحكم العادة والتقاليد، وبالتالى فالتساؤل الفلسفى يقع خارج نطاق تصوراتهم وأفكارهم. أما أقرانى فلم يكونوا فى مستوى الفكرى، ولذا عجزوا هم أيضًا عن محاورتى.

وفى نهاية الأمر ذهبت إلى مدرس اللغة العربية (والدين) أسأله، فاستخدم مفهوم السببية البسيطة؛ هذا العالم المخلوق لا بد أن يكون له خالق، وبذا فالأمور واضحة تمامًا، وهنا سألته ومن خالق الشر؟ كان رده فى غاية البساطة أيضًا، إذ قال إن العقل يعجز عن إدراك مثل هذا، وتركنى وحيدًا مع إجاباته البسيطة السهلة التى لم تشف لى غليلاً، بل قوّضت من إيمانى. وبدأ التأمل، وانتهى بى الأمر إلى أن أعلنت أننى لن أصلى ولن أصوم إلى أن أجد إجابة عن أسئلتي.

وكان أعضاء أسرتي قد تعودوا منى مثل هذه التحولات (حيث إننى قبل عامين كنت قد انضمت لجمعية الإخوان المسلمين، وكنت أقضى وقتاً طويلاً من الليل فى قراءة القرآن مع أحد الخدم)، شتمنى والدى ولكنه تركنى وشأنى.

ثم اتسعت دائرة الحوار مع بعض المثقفين أثناء وجودى فى الإسكندرية. وكان فى كلية الآداب قسم اللغة الإنجليزية وآدابها مجموعة من الأجانب ممن لا يجمعون عن مناقشة مثل هذه الأمور بحرية بالغة مما أتاح أمامى الفرصة لطرح المزيد من الأسئلة إلى أن أصبح الشك مكوناً أساسياً فى رؤيتى .

* شك أم إلحاد

دارت مناقشة حامية الوطيس بين أعضاء الندوة الشهرية التى أعقدتها فى منزلى، ويحضرها من يشاء من الشباب، حول طبيعة ما حدث لى بالضبط، هل كان مجرد شك وبالتالي فهو بداية بحث، أم كان إلحاداً صريحاً؟ لقد رأى بعضهم أننى أصبحت «ملحدًا» بالفعل، وأشار البعض الآخر إلى أن إيمانى ببعض المطلقات الأخلاقية والإنسانية يتنافى تماماً مع الرؤية المادية الخالصة (التي تشكل جوهر الإلحاد)، وأن هذه المطلقات هى تعبير عن وجود شىء ما وراء العالم المادى، وبالتالي فإن ما حدث هو أن الشك قوّض الإيمان البسيط. وبدأت رحلة البحث وظلت مستمرة إلى أن بلورت لنفسى رؤية دينية جديدة لا تتسم بالبساطة والسذاجة.

هذا يعنى أننى كنت أدور فى إطار نموذجين: أحدهما نظرى مادى (معاد لفكرة الإنسان والأخلاق والقيم ولأى شكل من أشكال الثبات والإطلاق)، والآخر عملى أخلاقى (يستند إلى إيمان بمنظومة أخلاقية تضرب بجذورها فى عالم ما وراء المادة وتتجاوز عالم المادة) (التجاوز بالمعنى

العام هو «تخطى شىء ما وصولاً إلى ما هو أسمى منه»، وأعتقد أن هذه الازدواجية هي التي تعمقت بعد ذلك وتبلورت إلى أن كان على أن أحسم الأمر وأصفى الازدواجية وأدخل عالم الإيمان والتركيب والثنائيات المتفاعلة (الله - الطبيعة، الروح - المادة).

الثمرة الثلاثون...

فراغ لم تملؤه إلا الماركسية

لقد خلق ما اعترانى من شك فراغ في نفسى، فلم يعد من الممكن قبول الأطر القديمة، وكان لا بد من أن يُمَلَأَ هذا الفراغ العقائدى (أو الأيديولوجى). وبما أننى كنت ثائراً ضد الظلم الاجتماعى، كان من الحتمى تقريباً أن أتوجه للماركسية، وقد أعطانى صديقى سعيد البسيونى بعض الكتب عن هذه الأيديولوجية، كما كان عند أصدقائى الأجانب كثير من الأدبيات الماركسية، ثم أفتتحت المكتبات السوفيتية التى كانت تبيع الكتب السوفيتية والماركسية بأسعار رخيصة، فاشترينا الكثير منها، وبدأت أقرأ فيها بنهم.

كان اهتمامى بالماركسية فكرياً فى بداية الأمر، إلى أن التقى بى أحد أعضاء حديثو (الحزب الشيوعى) وجئتنى عضواً فى الحزب عام 1955، وتم تصعيدى فى الحزب نظراً لمعرفتى باللغة الإنجليزية والمصادر الأولية للفكر الماركسى. ومن الطريف أننى كنت بموضوعية وأمانة كاملتين أُبين للرفاق فى الحزب أنه يجب ألا أصعد بسبب خلفيتى البورجوازية ولا بد من اختبارى والتأكد من «نقائى الأيديولوجى»! ومع هذا، استمروا فى تصعيدى، ووجدتنى مسؤولاً عن خلية وعضواً فى لجنة منطقة الرمل. ثم أصبحت مسؤولاً حزبياً عن مصنع شريط لتجفيف البصل فى الحضرة بالإسكندرية، وقد نجحت فى تنظيم إضراباً للعمال.

ولكن - والحق يُقال - كنت أشعر بأن وجودى بين الرفاق كان نشازاً، إذ إن درجات الفقر بين بعضهم لم تكن تُصدّق، وكانت تتزايد بسبب الإضراب، فكان كل هذا يصدمنى ويولّد فيّ إحساساً عميقاً بالذنب بسبب مستوى المعيشى.

الثمرة الحادية والثلاثون...

الخروج من دوامات الماركسية

الفضل يرجع لسلوك الرفاق

بدأت ألاحظ أن السلوك الشخصى للرفاق كان متناقضاً مع أى نوع من المثاليات الدينية أو الإنسانية، وأن كمية النرجسية (الإعجاب بالذات) عند بعضهم كانت ضخمة للغاية. وأنا لا أمانع في وجود قدر من النرجسية عند البشر، فهذا أمر بشرى أساسى، خصوصاً بالنسبة للثائر، فالنرجسية آلية نفسية يدافع من خلالها عن نفسه ضد مجتمع يود ابتلاعه، ولكن النرجسية التى لاحظتها عند كثير من الرفاق كانت بالفعل متطرفة. كذلك كانت الحريات الأخلاقية التى كانوا يسمحون لأنفسهم بها كاملة، أى أنهم في واقع الأمر كانوا شخصيات نيتشوية داروينية، لا علاقة لها بالماركسية ولا بأى منظومة أخلاقية، خاصة أن ماركسية بعضهم كانت تنبع من حقد طبقى أعمى وليس من إيمان بضرورة إقامة العدل في الأرض. بل كثيراً ما كنت أشعر أن بعضهم كان ماركسياً بحكم وضعه الطبقي المتدنى وحسب، وأنه لو سنحت الفرصة أمامه للفرار من طبقته والانضمام للطبقات المستغلة الظالمة لفعل دون تردد وطلق ماركسيته طلاقاً بائناً. لكل هذا قدّمت استقالتي، وطلبت أن أعدّ من أصدقاء الحزب لا من أعضائه.

ومن أطرف القصص التى رواها أحد الرفاق الفلسطينيين السابقين ما

حدث له مع مجموعة من الشيوعيين المتطرفين الغربيين: حضر هؤلاء إلى معسكر تدريب الفدائيين، وعندما بدأ الرصاص ينهال عليهم، بتدبير سابق، تصرفوا مثل كل البشر، فاختبأوا تحت السيارات، ولكن ما فاجأه هو أن كل واحد منهم بدأ يتلو أدعية دينية ويطلب العون من الإله!.

الثمرة الثانية والثلاثون...

الماركسية: بعض ما لها وما عليها

كان لتجربتي «الماركسية» القصيرة جوانبها السلبية والمظلمة دون شك، فاستخدام الصراع الطبقي ووسائل الإنتاج كمعيار نهائي، والبحث الدائب عن العمال والفلاحين بحسبانهم قوى فاعلة ستغير التاريخ قد جعلاً رؤيتي للفكر والأدب رؤية قاصرة إلى أقصى حد، وأعتقد أن هذا قد عاق تطوري الفكري بعض الوقت.

من حسن حظي أنني لم أحضر الفترة «الأممية» (التي تضع الولاء للشيوعية في مختلف الأمم فوق الولاء للوطن) حين كانت صفوف الحزب تزخر بالأجانب وبأعضاء الجماعات اليهودية وبالحماسة للحرب ضد فرانكو في إسبانيا مع إهمال الجهاد ضد الصهاينة في فلسطين!، فقد كان هذا الجهاد يُعدُّ سقوطاً في قبضة الرجعية العربية (كان حل الصراع العربي الإسرائيلي - في تصورهم - هو التحالف بين العمال والفلاحين اليهود والعرب ضد الرأسماليين والإقطاعيين العرب واليهود)!

* رب ضارة نافعة.

كان لتجربتي الماركسية آثار إيجابية كثيرة، فقد أتاحت لي فرصة التعرف على بعض النماذج الإنسانية (النبيلة والنيثوية) عن قرب (تؤمن الفلسفة

النيشوية بأن الأخلاق هي سلاح الضعفاء في مواجهة الأقوياء وأنه لا يمكن
حسم أى خلاف إلا بالقوة)، كما أننى استوعبت بعض المقولات الماركسية
مثل دور التاريخ واللحظة التاريخية في تحديد مواقف الأفراد وتوجهاتهم.

وللماركسية نزعتان فكريتان متناقضتان: الأولى هي النزعة المادية
المتطرفة التى ترى الإنسان باعتباره كائنًا ماديًا وحسب، والثانية هي النزعة
الماركسية الإنسانية، والتى تذهب إلى أن الإنسان ليس بكائن مادي وحسب،
وإنما هو كائن مركب تدخل في تركيبه عناصر مادية وأخرى غير مادية، ومن
ثم فإن هناك قانونًا للإنسان وآخر للأشياء والحيوان. وأعتقد أن هذه النزعة
الإنسانية هي التى حمتنى من السقوط فى المفاهيم اللاإنسانية (العدمية
والحيادية وانعدام الاتجاه والاحتفال بموت الإنسان).

كما أن الماركسية دَعَّمت من بعض الاتجاهات الكامنة داخلى، مثل
رفض الظلم والاستغلال، وضرورة إقامة العدل فى الأرض، وأهمية أن
يتجاوز الإنسان ما هو قائم وألا يذعن له (فالإذعان والقبول بالأمر الواقع
هما جوهر الجمود والرجعية).

والأكثر من هذا، زودتنى الماركسية بنظرة نقدية أطل بها على بيئتى
البورجوازية فى مصر، ثم فيما بعد على بيئتى الأمريكية فى الولايات المتحدة،
فلم أنبهر بما رأيت كما حدث لكثيرين من أعضاء جيلى، ولم أنغمس فى
الاستهلاكية والرغبة فى اقتناء السلع والأشياء والمزيد من السلع والأشياء.
فمن خلال الماركسية أمكننى الاحتفاظ بالبُعد النقدى وبمقدرتى على رؤية ما
حولى كاملاً بما فيه من إيجابيات وسلبيات، وبالتالي تجاوزه إلى عالم أرحب.
